الدور الثقافي لمدينة الجزائر خلال القرن 17م، المفتي سعيد قدّورة وجهوده في تحويل الجامع الكبير إلى مؤسسة علمية أنموذجا.

The cultural role of Algiers in 17century. Mufti Said Kaddoura and his contribution in transforming the Grand Mosque of Algiers into a scientific Institution.

د.معاد عمراني*

جامعة الوادي

amrani.mouad18@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/23 تاريخ القبول 2022/03/21 تاريخ النشر 2022/05/04

ملخص:

يتناول هذا المقال الدور الثقافي لمدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر ميلادي، حيث ركّزت فيه على شخصية المفتي سعيد قدّورة، ودوره في تحويل الجامع الكبير بمدينة الجزائر إلى مؤسسة علمية، تنافس جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، والأزهر الشريف بمصر، وذلك من خلال التعريف بشخصية هذا المفتي وبالجامع الكبير، الذي تولّى فيه الإمامة والإفتاء، ثم المكانة العلمية لسعيد قدورة، ودوره في بناء مدرسة الجامع الكبير، وتطوير أوقافه.

الكلمات المفتاحية: مدينة الجزائر؛ سعيد قدّورة؛ الجامع الكبير؛ القرن 17م.

Abstract:

This article discusses the cultural role of Algiers during 17 century. My focus was on the personality of Mufti Said Kaddoura and his contribution in transforming the Grand Mosque of Algiers into a scientific institution, and I also gave his personal background and of the Grand Mosque. This latter was a place for him to perform Imam and Ifta. Then I shed light on

* المؤلف المراسل

his scientific position and his role in building the school of the Grand Mosque and developing its Awqaf.

key words: Algiers ; Said Kaddoura ; the grand Mosque; 17Centurry.

مقدّمة:

إن مدينة الجزائر من المدن القديمة والتي يعود أصل إنشائها إلى الفينيقيين، ثم تداول عليها بعدهم الرومان ثم الوندال، فالبيزنطيين، وقد وصل الإسلام إلى هذه المدينة في القرن الأول الهجري، فخضعت للفاطميين، ثم دخلت المدينة تحت حكم المرابطين، فالموحدين، ثم خضعت لنفوذ الدويلات الثلاث التي أعقبت سقوط الموحدين، وهي الدولة الحفصية، والدولة الزيانية، والدولة المرينية، وبعدهم حكمت إمارة الثعالبة، ثم العثمانيين، الذين سيطروا على مدينة الجزائر في نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر ميلادي[1].

وبدخول العثمانيين إلى مدينة الجزائر، أصبح لهذه الأخيرة مكانة خاصة وهامة في سواحل البحر الأبيض المتوسط، إذ جعل منها العثمانيون عاصمة سياسية لحكمهم، وقد شهدت الجزائر العاصمة حركة علمية نشطة قائمة على دراسة العلوم الدينية خاصة، وقدّر هايدو عدد مساجد العاصمة بنحو مائة مسجد، منها سبعة مساجد كبيرة[2]، ففي المجال الثقافي، ازدهرت المدينة ثقافيا على الرغم من إهمال العثمانيين لهذا الجانب، وترك هذه المهمة للجزائريين، ومنه، فقد أنجبت هذه المدينة عدة علماء وفقهاء أثروا الحياة العلمية بالمدينة طوال العهد العثماني، ومن هؤلاء العلماء نذكر المفتي والعلامة الشيخ سعيد بن إبراهيم قدّورة، الذي كان مفتيا وإماما وخطيبا ومدرسا بالجامع الكبير، حيث ترك بصماته واضحة في تاريخ هذه المدينة، وفي الجزائر ككل خلال القرن السابع عشر ميلادي.

ومنه، فإننا نطرح التساؤل الآتي: ما هي المجهودات التي قام بها الشيخ سعيد قدّورة من أجل إثراء وتنمية الحياة العلمية والثقافية في مدينة الجزائر، خلال القرن 17م، انطلاقا من

مختلف المناصب التي تولاها بالجامع الكبير، خاصة إذا علمنا أن نظام الحكم العثماني آنذاك، لم يولي كبير اهتمام للحياة الثقافية والعلمية بالجزائر عموما، باستثناء بعض المحاولات الفردية من طرف بعض البايات، كصالح باي، والباي محمد الكبير.

ولمعالجة هذا الإشكال، سنعتمد على المنهج التاريخي، الذي يجمع بين الوصف والتحليل، آملين بذلك أن نقوم بتسليط الضوء على أبرز الشخصيات العلمية والدينية في الجزائر العثمانية خلال فترة القرن السابع عشر ميلادي(11هـ)، والتي نعتقد أنّها لم تأخذ مكانتها الحقيقيّة من البحث.

وسنقوم في هذا المقال بالتعريف بشخصية سعيد قدورة، وبمؤسسة الجامع الكبير، ثم التطرق إلى المكانة العلمية لسعيد قدورة ودوره في بناء مدرسة الجامع الكبير، وكذا دوره في تطوير مؤسسة أوقاف الجامع الكبير بمدينة الجزائر، وفي الأخير خاتمة تضم مجموعة من الاستنتاجات.

المبحث الأول –تعريف المفتي أبو عثمان سعيد بن إبراهيم قدّورة(ت1066هـ/1655م):

نشأ الشيخ سعيد قدّورة بمدينة الجزائر، ولكن الاختلاف حصل في مكان ولادته، بين قائل أنه ولد في تونس، وقول آخر أنه ولد في الجزائر، ولقد تلقى سعيد قدّورة العلم على مشيخة مدينة الجزائر، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن بلقاسم المطماطي، الذي كان مفتيا بالجامع الأعظم، وكغيره من الطلبة الراغبين في الاستزادة من العلم، قام سعيد قدورة بعدة رحلات علمية، فالتحق بزاوية تنس، حيث تتلمذ على الأخوين محمد وعلي ابني أبهلول أصحاب زاوية مجاجة، خاصة وأنهما اشتهرا في علم التفسير والحديث، وذلك سنة 1004هـ أو 1005هـ/ 1596م، ومكث بها إلى سنة 1009هـ/ 1600م، حيث عاد إلى مدينة الجزائر[3].

وبعد ثلاث سنوات، أي سنة 1012هـ/1603م شدّ سعيد قدّورة الرحال إلى مدينة تلمسان، وكانت شهرة عالمها الشيخ سعيد المقري[4] قد بلغت القاصي والداني، فتتلمذ على يديه، ومن تلمسان سافر إلى المغرب الأقصى، فزار صحراء فجيج وتافيلالت وسجلماسة ، وبني عباس التي درّس بها سنة 1015هـ/ 1606م، كما زار مدينة فاس، وتتلمذ أيضا على يد أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابن أبي محلى[5]، ومن الشيوخ، الذين أجازوه وأخذ عنهم أيضا إبراهيم بن حسن بن علي اللقاني المالكي المصري[6].

عاد سعيد قدورة إلى الجزائر سنة 1019هـ/ 1610م، حيث تولى إمامة مسجد البلاط، ثم خطابة جامع سيدي رمضان مع التدريس فيهما، ثم الإفتاء المالكي بالجامع الكبير بعد عزل سيدي أحمد زروق بن عمار سنة 1028هـ/1618م، واستمر في هذا المنصب إلى وفاته سنة 1066هـ[7].

وإلى جانب وظيفة الفتوى المالكية كان سعيد قدورة خطيبا ومدرسا بالجامع الأعظم، حيث تعود شهرته إلى المدة الطويلة التي قضاها في الفتوى والتدريس بأهم مساجد الجزائر، وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء[8]، وقد حافظ قدّورة على هذه المكانة العلمية، بالرغم من أنّ هذه الفترة التي تولاها في الإفتاء كانت طويلة، وحدث فيها الكثير من الاضطرابات والفتن[9].

وقد كانت مساهمة قدّورة في الدرس لا في التأليف وباللسان لا بالتعليم، وكذلك كثر تلاميذه وقلّت تآليفه، ومع ذلك نسب إليه مترجموه بعض التآليف التي لا تخرج عن الإملاءات التي كان يمليها على الطلاب في الجامع الكبير أو جامع سيدي رمضان، فهي مختصرة وموضحة لبعض المسائل التي قد تفوت الطلاب، وكانت موضوعاتها متنوعة لا تخرج عن المواد المدروسة عندئذ، ولاسيما مواد الحديث والفقه والنحو والمنطق، ومن أهم هذه المؤلفات نذكر ما يلي[10]:

-شرح خطبة مختصر خليل في الفقه.

-حاشية على شرح اللقاني لخطبة خليل.

-نوازل تلمسانية.

-رقم الأيادي على تصنيف المرادي في النحو.

-شرح المنظومة الخزرجية في العروض.

-حاشية على شرح صغرى السنوسي.

-شرح على السلم المرونق في المنطق.

ولعل لقدّورة غير هذه الشروح والحواشي، فقد كان أيضا شاعرا وراجزا شأن أكثر العلماء عندئذ، وتدل قصيدته في رثاء شيخه أبهلول أنه كان متضلعا في علم العروض أيضا، ولا ريب أن له أراجيز في موضوعات مختلفة، ولا سيما في نظم المسائل العلمية[11].

وبعد حياة حافلة بالعلم والعطاء توفي الشيخ سعيد قدورة سنة 1066هـ/ 1655م، ودفن بزاوية الولي الصالح سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري، بالقرب من ضريح شيخه سيدي محمد بن بلقاسم بن اسماعيل المطماطي[12].

المبحث الثاني-تعريف الجامع الكبير بمدينة الجزائر:

المسجد شرعا هو كل موضع من الأرض لقوله عليه الصلاة والسلام « جعلت لي الأرض مسجدا »[13]، وهو المكان الخاص الذي يؤدي فيه المسلمون الصلوات المفروضة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الفروض الدينية، ومختلف العلوم الأخرى المتعلقة بحياة المسلمين، والتعريف بشؤون الناس ومعالجة بعض المشاكل والقضايا المتعلقة بالحياة اليومية للمجتمع[14].

والمسجد نوعان واحد لا تقام فيه صلاة المجتمع، بينما تجرى في الآخر وهو المسجد الجامع، أو الجامع الكبير أو مسجد الخطبة، ويتضح من خلال هذا القول أن الجامع هو المسجد الذي تؤدى فيه صلاة الجماعة يوم الجمعة، ولذا عرف بالجامع، كما يمكن اعتبار لفظ الجامع نعت للمسجد، وإنما نعت بذلك، لأنه علامة الاجتماع[15].

ولقد عرفت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني عدة مساجد أشهرها الجامع الكبير، وهو أعظم مسجد للعاصمة، حيث تقدر مساحته بحوالي 200م، ويعود تاريخ بناء هذا المسجد إلى العهد المرابطي، حيث أسّسه يوسف بن تاشفين سنة 409هـ/1018م[16]، ولقد اكتسب هذا الجامع مكانة عظيمة في العهد العثماني، حيث امتاز بجماله ودقة بنائه، خاصة في قاعة الصلاة، وفي الترتيب البديع للأقواس المصقولة، وتعاقبها مع الأقواس الحادة، وكانت صومعته ترتفع على مستوى سطح الأرض إلى خمسة أمتار، وسقف المسجد يرتكز على 62 عمودا، وما كان يميزه أيضا وجود فوارة من المرمر(الرخام) أضافها العثمانيون في الساحة للوضوء[17].

وكان بالجامع الكبير بمدينة الجزائر(ساعة شمسية من رخام أبيض) على سطحه، كانت تعرف بها الأوقات الزمنية، حيث كان يعول عليها لضبط أوقات الصلاة الشرعية، إلى جانب وجود نبراس فخم جميل، كان موضوعا في مكان جميل بسطح المئذنة، والذي كان يستعمل للإعلام بدخول وقت الصلاة الليلية، ولا سيما في ليالي رمضان، حتى يراه مؤذني بقية مساجد العاصمة من أعلى الصوامع، فيسرعوا في الآذان[18].

وفي العهد العثماني، كان الجامع الكبير بالعاصمة مقرا للمفتي المالكي وللمجلس الشرعي(يوم الخميس)، وكان هذا المجلس يضم المفتي المالكي والمفتي الحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي وكبار العلماء والقضاة، كما كان يحضر الباشا أو نائبه عند الضرورة، ومن أبرز مهام هذا المجلس هو الفصل في القضايا الفقهية الشائكة، ولاسيما تلك التي

يختلف فيها القضاة عند التطبيق والتنفيذ، أو تلك التي يحتاج فيها الباشا إلى فتوى العلماء[19].

وكان هذا المجلس أيضا مركزا للمناظرات بين العلماء في المسائل الخلافية العامة، ومجالا للتنازع والتنافس والتظاهر وكسب ود السلطة عند بعض العلماء، ومن أشهر العائلات التي تولت الفتوى المالكية في الجامع الكبير عائلة قدورة، ومن أبرز العائلات أيضا، ابن جعدون وابن الشاهد وابن الأمين وابن نيكرو[20].

كما كان للجامع الكبير موظفون كثيرون وأوقاف ضخمة تسيل لعاب العلماء المتنافسين، ومن أهم موظفيه بالإضافة إلى المفتي والوكيل، إمامان للصلوات الخمس، ومساعدان للمفتي وتسعة عشر أستاذا (مدرسا)، وثمانية عشر مؤذنا، وثمانية حزابين لقراءة القرآن الكريم، وثلاثة وكلاء أوقاف واحد منهم نائب للمفتي، الذي هو الوكيل الرئيسي، والثاني وكيل أوقاف المؤذنين، والثالث وكيل أوقاف الحزابين، وثمانية موظفين، وثلاثة موظفين للسهر على الإضاءة، أما الخطبة الجمعة والعيدين، فكان يتولاها المفتي نفسه، وهناك غير هؤلاء الموظفين، الذين لا يكاد يأتي عليهم الحصر[21].

المبحث الثالث–المكانة العلمية لسعيد قدّورة ودوره في بناء مدرسة الجامع الكبير:

لم تكن بالجزائر جامعات أو مدارس عليا بالمفهوم الحالي خلال العهد العثماني، بل كانت دروس مساجدها الكبيرة وزواياها تضاهي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجوامع الكبرى في المشرق العربي، كالجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين، إضافة إلى تردد بعض الأساتذة المدرسين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومشاركتهم في التدريس، كعبد القادر الراشدي، وعبد الكريم الفكون بقسنطينة، وعلي الأنصاري، وسعيد قدورة بالعاصمة، وأحمد البوني في عنابة[22].

ولقد استطاع الشيخ سعيد قدورة أن يبني زاوية ومدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير بمدينة الجزائر، إذ كانت عائلة قدورة متولية وكالة أوقاف هذا الجامع مدة طويلة[23]، فقد اشتهرت مدرسة الجامع الكبير، وكانت تمثل نواة جامعية بها أبرز المدرسين، كمحمد بن سعيد قدورة ومحمد بن الشاهد، وسعيد قدورة، هذا الأخير، الذي استطاع أن يشيد سكنى خاصة بطلبة مدرسة الجامع الكبير، إذ وصل عدد المدرّسين بهذه المدرسة تسعة عشر أستاذا وعددا من المساعدين[24].

إن جهود سعيد قدورة في تطوير مدرسة الجامع الكبير، وشهرة هذه الأخيرة، جعلتها مقصدا لبعض العلماء والمدرّسين من داخل الجزائر ومن خارجها، ونذكر من بينهم الشيخ أحمد المقري التلمساني، الذي جلس للتدريس في مدرسة الجامع الكبير، وكانت علاقته جيدة مع المفتي قدورة، واستمرت هذه العلاقة حتى عندما رحل المقري إلى المشرق[25].

أما من خارج الجزائر، فنذكر علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي من المغرب، هذا الأخير، الذي استوطن الجزائر خلال لأربعينيات من القرن 11هـ/17م، وشارك في حياتها العلمية، فكان مجيئه إلى مدينة الجزائر والتدريس في مدرسة جامعها الكبير فرصة نادرة لطلاب الجزائر، إذ حفلت العاصمة بمستوى رفيع من التعليم، فالأنصاري كان متمكنا من عدّة علوم، فقد كان آية باهرة في جميع العلوم، وكان يدرّسها جميعا لطلابه بكتب متقدمة في المستوى، ومن العلوم التي كان يدرّسها أصول الدين والبيان والمنطق والنحو ومصطلح الحديث والفقه والسير والتصوف، وتكاد تكون هي نفسها التي كان يدرسها زميله سعيد قدورة، ولكن مع اختلاف في الأسلوب والشخصية والاستنتاج[26].

إن هؤلاء العلماء، الذين ساهموا مساهمة فعالة في التدريس بمدرسة الجامع الكبير، ساعدوا في تخريج جيل من الطلبة أصبحوا علماء مشهورين فيما بعد، ومن أشهرهم محمد وأحمد ابني سعيد قدورة ، وأبو مهدي عيسى الثعالبي[27]، ويحي الشاوي[28]، وأبو حفص عمر المانجلاتي[29]، وعلي الأجموري[30]، ومحمد بن عبد الكريم الجزائري[31].

ولقد ساهمت شهرة سعيد قدورة في أن يقصده الطلاب من مناطق بعيدة، كإقليم توات بالجنوب الغربي الجزائري، فأخذ عنه بمدينة الجزائر الشيخ عبد الكريم بن محمد التمنطيطي، وابنه الشيخ البكري، كما أخذ عنه بعض علماء المغرب الأقصى، ومن أشهرهم محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي، والشيخ محمد بن سليمان الروداني[32].

كان يكفي أن يقال أنّ هذه المسألة رويت عن سعيد قدّورة حتى يسكت المعارض، ويصدّق السائل، ويكفي أيضا أن يقال أنّ هذا الطالب أو العالم قد درس على يد قدّورة، أو أجازه حتى يقرّ له بالعلم، لذلك انتشر طلاّبه في كل صقع حاملين في صدورهم الولاء له، والعلم منه، وقد بلغ المعجبون والمؤمنون به، حتى أنّهم وثقوا فيمن روى عمّن روى عنه، وظلّت هذه السلسلة متواترة بين العلماء المسلمين إلى الوقت الحاضر، وبذلك يكون قدّورة قد أثّر في جيله، بل في الأجيال اللاحقة له تأثيرا لم يبلغه إلا القليل من العلماء.

إنّ الجهود الجبارة التي قدّمها الشيخ سعيد قدورة من أجل تطوير الحياة الثقافية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وخصوصا السنوات العديدة التي قضاها في التدريس والفتوى والإمامة والخطابة، جعلت قيمته ومرتبته تزداد عند الباشاوات العثمانيين، إذ أنهم كانوا يقفون له إجلالا ويقبّلون يده، ولقد بلغ من حرمته على ما تذكر الروايات، أنهم كانوا يعتقدون فيه النفع والضرر والبركات والكرامات، وبلغ من تقدير الباشاوات وأهل الديوان أنهم كانوا يقدمونه على المفتي الحنفي، الذي كان يمثل المذهب الحاكم، وكانت لقدّورة الدّالة على زميله الحنفي أيضا في المجلس العلمي والقضائي، الذي كان ينعقد برئاسة قدّورة في الجامع الكبير، ولعل انعقاد هذا المجلس في هذا الأخير بالذات، الذي ظل تقليدا طيلة العهد العثماني، يعود إلى شخصية قدورة ومكانته العلمية[33].

المبحث الرابع– دور سعيد قدورة في تطوير مؤسسة أوقاف الجامع الكبير:

المطلب الأول– أوقاف الجامع الكبير:

الوقف هو عقد لعمل خيري ذي صبغة دينية، يقوم على الواقف، الذي له أهلية التبرع بما يملك من ذات أو منفعة، وعلى وجود الموقوف، وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس، فضلا على توفر الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف تلك المنفعة أو الذات، ولو كان مصلحة عامة، كالمسجد والمدرسة والزاوية وغيرها، هذا مع اشتراط صيغة الوقف، ولو كانت بكتابة على مسجد أو مؤسسة خيرية[34].

تعتبر أوقاف الجامع الكبير وبعض الزوايا بالعاصمة، وأوقاف الجامع الكبير في قسنطينة ومعسكر وتلمسان والمدية من المؤسسات الغنية في المجتمع الجزائري[35]، وهي من حيث كثرة عددها ووفرة مردودها تحتل الدرجة الثانية بعد أوقاف الحرمين، ولعل هذا يعود أساسا إلى الدور الذي كان يلعبه الجامع الأعظم في الحياة الثقافية والدينية ولكثرة عدد المساجد المالكية في الحواضر الجزائرية الكبرى، ففي مدينة الجزائر مثلا بلغ عدد المساجد المالكية 92 مسجدا، كل مسجد خصصت له أوقاف تنفق عليه، وكان طليعة هذه الأوقاف الخاصة بالمساجد أوقاف المسجد الأعظم التي بلغت من الكثرة والضخامة، بحيث كانت تناهز 550 وقفا، تمثلت في الحوانيت والمنازل والضيعات والبساتين والمزارع وغيرها، ويعود التصرف فيها للمفتي المالكي، الذي يوكل أمور تسيير شؤونها إلى الوكيل العام، الذي يعاضده وكيلان، أحدهما متكلف بأوقاف المؤذنين، وآخر يهتم بأوقاف الجزائريين[36].

ونتيجة لضخامة أوقاف هذه الجوامع المختلفة، أصبحت وسائل للنفوذ والإثراء لمن يتولى وكالتها من العلماء ونحوهم، وكانت عائلة قدورة متولية وكالة أوقاف الجامع الكبير بالعاصمة مدة طويلة[37].

المطلب الثاني–استثمار سعيد قدّورة لأوقاف الجامع الكبير:

لقد ورث سعيد قدورة مبلغا معتبرا من عائدات أوقاف الجامع الكبير عند تولّيه منصب وكيل أوقافه، ويكمن الفرق بينه وبين سابقيه من العلماء، الذين تولّوا هذا

المنصب قبله، هو أنّ قدورة استطاع أن يستثمر هذه الأموال في تطوير الجامع الكبير وتحويله إلى صرح علمي وحضاري تشدّ إليه الرحال من كل حدب وصوب، وذلك ببناء زاوية ومدرسة من فائض أوقافه.

ولم يكن المفتي قدورة ينفق على نفسه من هذه الأوقاف بحكم منصبه، فقد كان ميسور الحال، بل أنّ خلفاءه الذين كانوا ينوبون عنه إن تأخر عن الخطبة أو صلاة الظهر أو العصر، كان ينفق عليهم من ماله الخاص لا من الأوقاف، لأنه كان صاحب ثروة وجاه[38].

استطاع قدّورة أن ينفق على الجامع الكبير، وأن يوفّر أموالا اشترى بها كتبا لمكتبة الجامع، كما شيّد زاوية قرب الجامع، أصبحت فيما بعد تعرف باسم زاوية الجامع الكبير، وكذلك شيّد مدرسة لفقراء الطلبة والغرباء منهم، كل ذلك من فائض أوقاف الجامع الكبير، رغم أن الرأي العام هو الذي كان يتحكم في مصير وكيل الوقف عموما، فالظاهر أن الإشاعات كانت تحوم حول تصرّفات قدّورة في الأوقاف، وبعد ثماني سنوات من توليته طالبه الناس بتقديم الحساب على أموال الجامع الكبير التي بلغ فائضها وحده عند توليته اثني عشر ألف ريال بوجو، استغلّ جزءا منها في شراء الكتب لمكتبة الجامع، وكذا ترميم ما بلى وتهدّم من المسجد، إلاّ أنّ قدّورة أخرج للباشا ولأهل البلد كل الوثائق التي كانت موثقة بأقلام وأختام العدول الثقات، والتي تثبت عكس ما اتّهم به، فخاب بذلك ظن وسعي حسّاده[39].

إنّ الجامع الكبير بمدينة الجزائر، ومنذ تأسيسه خلال العهد المرابطي، كان مكانا للعبادة والتعبد بالدرجة الأولى، وبمجيء قدّورة إلى هذا الصرح الديني، تحوّل هذا الأخير إلى مؤسسة علمية بامتياز، فكثر طلاب العلم والمعرفة، سواء من مدينة الجزائر أو من خارجها، ومردّ ذلك إلى الاستغلال الأمثل لأموال وعائدات الأوقاف، التي تضاعفت أعدادها، وتنافس المحسنون والتجار وأصحاب الأموال من أجل وقف ممتلكاتهم، حيث

وضعوا ثقتهم الكاملة في الشيخ قدّورة، الذي خالف عادة أسلافه في طريقة صرف أموال الوقف.

لم يكن الشيخ قدّورة، ينظر للوقف على أنّه مجرد صدقة تصرف على الفقراء والمساكين وغيرهم، بل تجاوز هذه النظرة الكلاسيكية إلى نظرة إستشرافية بخصوص استغلال أوقاف الجامع الكبير، كيف لا وقد زار قدورة أثناء رحلته في طلب العلم عدّة مؤسسات علمية داخل الجزائر وخارجها(المغرب الأقصى)، وقارن بينها وبين ما يوجد في مدينة الجزائر، فأراد بذلك أن يجعل من الجامع الكبير مدرسة علمية بامتياز، تنافس مختلف مراكز العلم في العالم الإسلامي آنذاك، وتشفي غليل طلبة العلم، وتغنيهم عن شدّ الرحال إلى أماكن أخرى لطلب العلم.

الخاتمة:

يعتبر الشيخ سعيد قدورة من العلماء القلائل، الذين كسبوا تأثيرا في جيلهم والأجيال التي عقبتهم، وبفضله حافظت أسرته من بعده على الإفتاء المالكي، وعلى الأوقاف والحياة العلمية في الجامع الكبير بمدينة الجزائر.

إنّ الجامع الكبير قبل تولّي سعيد قدّورة مختلف الوظائف به، وعلى الرغم من قدمه، كان مجرد مسجد مخصص للعبادة، لا يختلف كثيرا عن بقية المساجد الأخرى بمدينة الجزائر، وبمجيء قدّورة أصبح مؤسسة علمية وقطبا دينيا هاما، يقصده الطلبة والعلماء لطلب العلم من داخل الجزائر ومن خارجها.

بفضل جهود قدورة وإصلاحاته في الجامع الكبير، أصبح هذا الأخير يلعب دورا ثقافيا وتعليميا كبيرا، ينافس جامع القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر الشريف بمصر، فبدل أن يشدّ طلبة العلم في الجزائر الرحال إلى هذه المراكز الدينية والعلمية في الخارج، وجدوا ضالّتهم في هذا المعلم الديني، الذي عوّضهم عن تحمل مشقة وعناء السفر إلى خارج الوطن.

إذا كان العثمانيون قد جعلوا من مدينة الجزائر عاصمة سياسية يحسب لها ألف حساب في سواحل البحر الأبيض المتوسط، فإن سعيد قدورة جعل من مدينة الجزائر عاصمة علمية تعج بمئات الطلبة والعلماء، ويقصدها القاصي والداني، وبالتالي أعطى لهذه المدينة شهرة دولية، فارتبط اسمه بها، بل نكاد نجزم أنه لم يسبقه في ذلك أحد من العلماء لا من قبل ولا من بعد، باستثناء الشيخ الصوفي عبد الرحمان الثعالبي، الذي عاش في مدينة الجزائر خلال القرن الخامس عشر ميلادي.

الهوامش:

1 محمد حاج سعيد« **مساجد القصبة في العهد العثماني، تاريخها، دورها وعمارتها** »، مذكرة ماجستير، قسم اللغة والحضارة ،كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، الجزائر، 1435/ 1436هـ، 2014/ 2015م، ص2.

2حسين بوخلوة « **عبد الكريم الفكون القسنطيني، حياته وآثاره (1663/1580م)** »، شهادة ماجستير، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانية–وهران، 2008–2009م، ص.48.

[3] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ط1، ج1، ص. 358، محمد بن عمر الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.218.

4 ولد سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمان المقري سنة 928هـ /1522م بمدينة تلمسان، حيث تعلم على يد مشائخها، ثم رحل إلى فاس، ليدرس على أشهر مشائخها، ومن بينهم الشيخ عبد الواحد الونشريسي، بعد مدة رجع المقري إلى تلمسان، وفي سنة 966هـ تولى الفتوى لمدة ستين سنة، والخطابة بجامعها الأعظم لمد خمس وأربعين سنة، كما اكتسب المقري شهرة كبيرة من خلال تصدّيه للتدريس بالجامع الكبير، ويصفه ابن مريم في كتابه البستان بقوله: « له باع في حديث البخاري وغيره، وكان علامة في التوحيد والفقه...أتقن كل علم، حافظا للغة العربية والشعر والأمثال »، وقد توفي المقري سنة 1025هـ/1616م، للمزيد من المعلومات، يراجع: الحاج محمد بن رمضان الشاوش، **كتاب جوهر السوسان في التعريف بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ص.154، ابن مريم، **البستان**، ص.195

5 أحمد الناصري، **الاستقصاء بأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، 1955م، ج.6، ص30.

6 محمد هواري"**شرح السلم المرونق في علم المنطق للشيخ سعيد قدورة 1066هـ/1656م**"، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة أبو بكر بلقايد بتلمسان، الجزائر، 2012/ 2013م، ص.72.

[7] لزغم فوزية «**البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، ودورها الثقافي والسياسي (925–1246هـ/1520–1830م)**» ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران(الجزائر)، 1434–1435هـ/2013–2014، ص ص.47–48

[8] نفسه، ص ص 49–.50

9 الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط.1، ج.1، ص.250.

10كريمة مبدوعة **«اسهامات سعيد قدّورة في الدرس اللغوي»**، مجلة الفضاء المغاربي، الجزائر، المجلد الثالث، العدد الأول، 2019م، ص.19.

[11] سعد الله، **مرجع سابق**، ج.1، ص ص. 368– 369.

12 حسين بن رجب بن المفتي، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها**، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م، ط.1، ص.98.

[13] محمد بن عبد الله الزركشي، **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، تح: أبو الوفا مصطفى المراغي، القاهرة، 1996م، ط.1، ص.27.

[14] أحمد مريوش وآخرون، **الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص.12.

[15] بن بلة خيرة« **المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني** » رسالة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر(الجزائر)، 2007–2008م، ص ص.34–35.

[16] نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، دار الحضارة، الجزائر، 2006م، ص ص.155–157.

17 عبد الرحمان الجيلالي « **الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا**»، مجلة الأصالة، الجزائر،ع.8، 1982، ص.126.

[18] نفسه، ص.122.

19 مبدوعة، **مرجع سابق**، ص.18، سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص258.

[20] للمزيد من المعلومات حول المجلس العلمي ينظر: لطيفة حمصي **«هيئة الإفتاء بمدينة الجزائر خلال الحكم العثماني، قراءة في وثائق الأحكام الشرعية»** مجلة العلوم الإنسانية ، الجزائر، مج.ب، ع.41، جوان 2014م، ص ص.89–99، سعد الله، **مرجع سابق**، ص.258.

[21] سعد الله، **مرجع سابق**، ص.259.

[22]مريوش، **مرجع سابق** ، ص. 15.

أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، مؤسسة الرسالة، بيروت (لبنان)، 1985م، ط.2، ج.1، ص.84،

[23] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.243.

[24] مريوش، **مرجع سابق**، ص.16.

25 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.269.

26 نفسه، ج.1، ص..370

27 هو عيسى بن محمد بن أحمد بن عامر أبو مكتوم، ولد بمنطقة زواوة بالجزائر، من أشهر مؤلفاته كنز الرواية، توفي سنة 1080هـ، ودفن بمكة المكرمة، للمزيد من المعلومات، يراجع: عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات** دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م،، ط.2، ص.1132.

28 هو أبو زكريا يحي بن أبي عبد الله محمد بن عيسى النائلي المليانى الشاوي، ولد بأولاد نايل بمليانة سنة 1030هـ تتلمذ بالجزائر على يد سعيد قدورة، من أهم مؤلفاته: حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي، شرح التسهيل لابن مالك، توفي الشاوي سنة 1685م، للمزيد من المعلومات، يراجع: محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1971م، ج.2، ص.316

29 هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمان المانجلاتي، فقيه كبير وأصولي مالكي، تتلمذ على يد سعيد قدورة وتوفي سنة 1104هـ، للمزيد من المعلومات، يراجع: عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م، ط.2، ص.318.

30 هو علي بن زين العابدين بن محمد، من مؤلفاته: شرح على ألفية العراقي في السير، توفي بمصر سنة 1066هـ، للمزيد من المعلومات، يراجع: الكتاني، **مصدر سابق**، ص.782

31 نزيل فاس، أخذ عن عدّة علماء من المشرق ومن المغرب، من بينهم الشيخ سعيد قدورة، توفي بفاس سنة 1102هـ، للمزيد من المعلومات، يراجع: هواري، **مرجع سابق**، ص.81.

32 لزغم، **البيوتات**، ص.49.

33 مبدوعة، مرجع سابق، ص.18.

[34] مريوش، **مرجع سابق**، ص.46.

35 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.243.

[36] ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص. 158.

37 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.243.

[38] ابن المفتي، **مصدر سابق**، ص.98.

[39] نفسه، ص.97 .